الثروات والكنوز الحضارية والمدن التاريخية في محافظة إب:

(مدينة إب: مدينة العلم والعلماء والأدباء الكائنة في بساط أخضر عبر العصور)

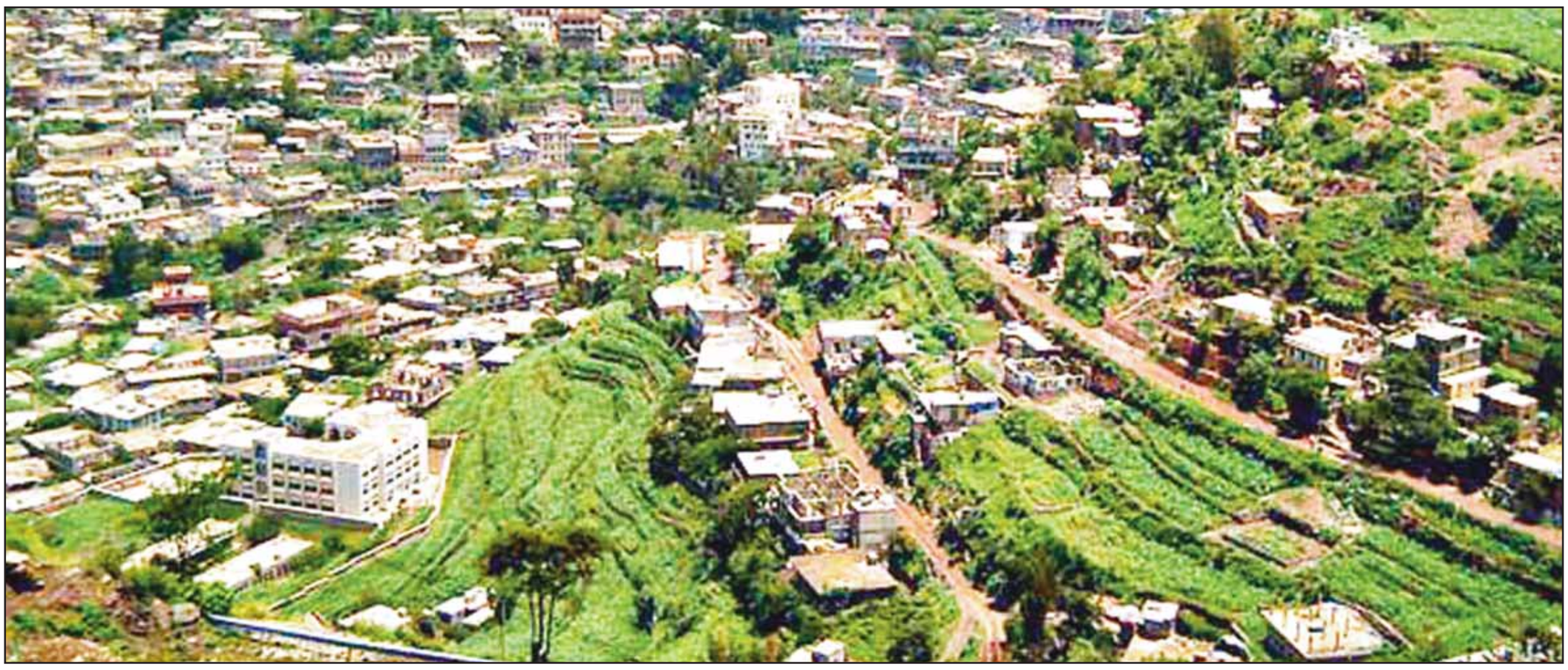

محمد محمد العرشي

المقدمة:
أخي القارئ الكريم ..في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ بلادنا والعالم العربي والإسلامي؛ التي يشهد ثورات وانقلابات لا عهد لنا بها منذ عدة قرون خلت، علينا أن نرجع إلى تاريخ بلادنا وثرواتها العلمية والفكرية.

ولقد أحببت أن أُتحف القارئ الكريم بتحفة أدبية، ليعرف أن تاريخنا الأدبي يشمل العديد من الشعراء الذين لا يستطيع الشعراء الشباب في عصرنا أن ينتجوا ابداعاً كإباداعاتهم، ومنهم هذه التحفة الأدبية، وهي للشاعر الكبير المرحوم/ أحمد بن عبدالله القريظي، وقد اختلف الباحثون في موطنه فبعضهم ينسبه إلى جبأ في محافظة تعز، وبعضهم ينسبه إلى مخلاف لحج وهو الأصح..وأورد منها الأبيات التالية:

استودع الله الذي ودّعا
ونحن للفرقة نبكي معا
أسبل من اجفانه أدمعا
لما رآني مسبلا أدمعا
وقال لي عند وداعي له
ما أعظم البين وما أوجعا
ما أنت بعدي بالنوى صانعٌ
فقلت لا أقدر أن أصنعا
ما يصنع الصبّ المعنّى إذا
فارق إلفاً غير أن يجزعا
فارقتكم يا ساكني يفرس
ورحت والقلب بكم مولعا
ناديت صبري يوم فارقتكم
أجدّ للبين وقد أزمعا
يا صبر عُد يا صبر عُدْ قال لا
لبيك لا لبيك يا من دعا
والله لا أرجع يا غادراً
في السير بالأحباب أو ترجعا
ولي فؤاد منذ فارقتكم
يُمسي كئيباً مولعاً موجعا
ونفس صبّ شهدت أنه
ما نقض العهد ولا ضيّعا
ومقلة مهما تذكرتُكم
تذرف دمعاً أربعا أربعا
وليس لي من حيلة كلما
لجّت بي الأشواق إلا الدّعا
أسال مَن ألّف ما بيننا
وقدر الفرقة أن يجمعا

وله ديوان شعر كما ذكر الجندي في كتابه السلوك، أرجو أن يتاح للباحثين والدارسين العثور عليه وتحقيقه، وهم بذلك سيخدمون تاريخ الأدب اليمني والعربي.

مدينة إب

إبّ: بكسر الهمزة والباء الموحدة المشددة، تقع مدينة إبّ في قلب محافظة إبّ على ربوة عالية من السفح الغربي لجبل ريمان - بَعْدان - وترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي (2000متر)، تحيط بها من الغرب مديرية العُدَيْن، ومن الجنوب مديرية ذي السُفَال، ومن الشرق مديرية النادرة، ومن الشمال مديرية يَرِيْم، وتعتبر مدينة إبّ من المدن اليمنية القديمة ومن أثارها القديمة "الدار البيضاء" وهو مقر ضخم تهدم معظمه وسُمّي بالبيضاء نسبة إلى "البيضاء بنت شمّر يهرعش"، كما أنها برزت في العصر الإسلامي كمدينة إسلامية وقد أشار المرحوم القاضي "الأكوع" بقوله :(أن مدينة إبّ لم تذكر في الأخبار والأدب إلاّ في أخر "القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي" حينما هاجمها الأمير "عبدالله بن قحطان الحوالي" عام380 هجرية، وكانت قبل ذلك قرية مسورة لها من الآثار سورها وجامعها(، فجامعها يعود تاريخه إلى عهد الخليفة الثاني "عمر بن الخطاب" وأسس بأمر منه - رضي الله عنه - وما زال يسمى إلى اليوم "الجامع الخطابي"، وتمتاز مدينة إبّ القديمة بنمط معماري يماثل الأنماط السائدة في المدن الجبلية قوامه الحجارة ومنازلها تتكون من عدة أدوار تتراوح معظمها ما بين (3 - 5 طوابق) تزين واجهاتها أفاريز ونوافذ على شكل فتحات دائرية يغطيها الرخام، ونتيجة لموقعها الجغرافي المكون من ربوة عالية على سفح جبل، فقد تعذر تخطيط شوارعها بشكل مستقيم، فاستعاض المعمار اليمني عن ذلك بأن أقام سلسلة من السلالم الصاعدة والتي تبدأ من سور وأبواب المدينة، وتُعد مدينة إبّ من أجمل المدن اليمنية لمّا تحمله من صفات ومميزات تاريخية إضافة لامتلاكها عدد من المباني الأثرية والتاريخية والتي ما زال العديد منها قائماً مثل: مساجدها ومدارسها الإسلامية ومبانيها الأثرية وأجزاء من سورها والسلالم الصاعدة المرصوفة بالأحجار علاوة إلى موقعها الاستراتيجي المتميز ومنظرها الجذاب البديع المتناسق بين جمال وروعة البناء وطبيعة الأرض الخلابة.

وصفها المرحوم القاضي علي ابن صالح أبو الرجال من أعيان القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وصفاً طويلاً منه قوله:

زبرجدة خضراجرى فوق وجهها
قضيب من البلور والورد كالدر

وبالمعنى نفسه وصفها الرحال العربي أمين الريحاني عند زيارته لها سنة 1342هـ/1924م كأنها "قبضة لؤلؤ على بساط أخضر". وذلك لبياض لون دُورها واخضرار محيطها الطبيعي. ويذكر أن موضع مدينة إب القديمة كان يسمى باسم (الثجة)، وإن اختلف هذا الموضع عند الهمداني في حوالي بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، عندما حدده ضمن عدة مواضع "والثجة من جبل التعكر" وأنها تقع "بين نخلان والسحول"، ولم تذكر مدينة إب عند الهمداني في ذلك الحين. وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وقد كانت إب من قرى ذي جبلة كما يذكرها ابن المجاور بأنها قلعة. وإن كان الوزير الحسن بن سلامة في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قد بنى فيها مسجداً من ضمن محاسنه العديدة، فقد عرفت كمدينة بهذا الإسم (إب) إبان حكم الملكة الصليحية الحرة المرحومة السيدة بنت أحمد عندما كانت تقيم في مدينة جبلة، وتوفيت عام 532هـ/1138م، وانتقل ما كان تحت يدها من الحصون والذخائر والأموال إلى منصور بن الفضل بن أبي البركات، فلما كبر وضعف اشترى الداعي بن محمد بن سبأ بن أبي السعود منه الحصون والمدن سنة 546هـ1151م، بمبلغ وقدره مائة ألف دينار، قال عمارة: وهي ثمانية وعشرون معقلاً ما بين حصن ومدينة، ومن ذلك جبلة وإب والتعكر وحب. بعد ذلك التاريخ يذكر اسم مدينة إب، وأنها انهدمت بعد أن تزلزلت منها الأرض يوم الجمعة 6 ربيع الأول سنة 549هـ/21مايو 1154م زلزلة شديدة في اليمن من صنعاء إلى عدن، وانهدم كثير من الحصون والمدن. ومدينة إب القديمة كغيرها من المدن الإسلامية الهامة تتميز بأن لها سوراً مبنياً من الحجارة يدور حولها من الجهات الأربع، ولها خمسة أبواب هي: باب النصر من جهة الشرق، وباب سنبل ممن جهة الجنوب، والباب الكبير من جهة الغرب، وباب الراكزة (العقبة) من جهة الشمال، واستحدث الباب الجديد من الجهة الجنوبية الغربية. وبقي منها مداخل باب النصر وباب سنبل وباب الراكزة (الذي بقيت بوابته الصغيرة كما هي حتى الآن)، وأزيل البابان الآخران. ويعزى إلى المرحوم يحيى بن محمد بن عباس الشهاري المتوفي سنة 1382هـ/1962م إضافة باب خامس يعرف باسم الباب الجديد.

كما تتوزع على طول السور الأبراج الدائرية المرتفعة ذات فتحات صغيرة هي أقرب إلى الثقوب، وكانت تستعمل من أجل الحراسة وإتاحة الفرصة للنظر والاستطلاع خارج السور، ولا يزال أغلبها قائماً. كما أن السور كان يساعد في بعض أجزائه، كما في باب النصر، على مرور الماء في القنوات التي تعلوه، أما ما تبقى من السور فيظهر في أماكن متفرقة أفضلها حالاً ذلك الجزء القائم عند مقدمة دار الحكومة ومكاتبها سابقاً في الجهة الغربية، ويتميز بأنه مرتفع تسنده دعامات ضخمة.

وقد نالت مدينة إب العناية من قبل الدولة الرسولية، إذ تنسب عمارة مقدمة الجامع الكبير إلى السلطان أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن الأمير الأجل شمس الدين بن علي بن رسول (ت سنة 677هـ/1278م)، وقد ذكرت في كتابة في نقش في عتبة الباب المقدم من الجهة الغربية للجامع. كما تنسب المدرسة الأسدية إلى نفس السلطان، ووثق ذلك بكتابة منقوشة على حجر في عتبة باب المدخل الرئيسي للمدرسة في الجهة الجنوبية.

مديرية إب

تقع في محافظة إب إلى الجنوب من العاصمة صنعاء بحوالي 192كم. يحدها من الشمال مديريتا: حبيش والمخادر، ومن الجنوب مديريات: (السياني، جبلة، السبرة، الظهار، المشنة)، ومن الشرق مديريتا: بعدان والسبرة، ومن الغرب مديريتا: العدين وجبيش.

تبلغ مساحة المديرية 188كم2، ومركزها مدينة إب، تضم المديرية 277قرية تشكل هذه القرى 16 عزلة، هي: البحريين، بلاد شار، بني محرم، بني مدسم، ثواب أعلى، ثواب أسفل، جبل صعود، حرد، الحوج العدني، الحوج القبلي، الروس، ريمان، شعب يافع، المقاطن، الموية، ميتم. وقد بلغ عدد سكانها 144.596نسمة، في التعداد العام للسكان والمساكن عام 2004م. ومن أشهر المحافظين لمحافظة إب؛ القاضي المرحوم أحمد بن أحمد السياغي (1326هـ- 22 جماد أول 1384هـ) والذي كان له الفضل في تخطيط طريق السيارات من سمارة...والمرحوم عمي القاضي عبدالكريم بن عبدالله العرشي (1348هـ- 1929م/16 جمادى الأولى 1427هـ11 يونيو 2006م) والذي استطاع بحنكته الإدارية أن يقضي على الاضطرابات في محافظة إب..

من أشهر معالم مدينة إب

اشتهرت مدينة إب بالكثير من المعالم التاريخية والآثرية، ومن أهم هذه المعالم:

الجامع الكبير: يقع الجامع الكبير وسط المدينة تقريباً على ربوة مرتفعة، ويتم الوصول إليه عن طريق سلالم صاعدة. يرجع تاريخ بناء الجامع الكبير حسب الروايات الإخبارية المتداولة إلى عصر الخليفة الثاني "عمر بن الخطاب – رضي الله عنه" وقد سمي بالجامع العُمري نسبة إليه، أي إلى (العقد الثاني من القرن الأول للهجرة)، وخلال العصور الإسلامية المتتابعة توالت عليه إضافات وتجديدات جعلت منه الجامع الرابع في اليمن من حيث الحجم والسعة والجمال وذلك بعد جامع الجند في تعز، والجامع الكبير في العاصمة صنعاء، وجامع الأشاعر في مدينة زبيد، وبات مستحيلاً التعرف على الجامع الذي أنشئ في عصر الخليفة "عمر بن الخطاب" – رضي الله عنه، بينما نجد أن أكبر توسعة حصلت للجامع هي التوسعة التي قام بها وزير الدولة الزيادية "الحسين بن سلامة"، ضمن أعماله التي شملت بناء العديد من المساجد والجوامع الإسلامية اليمنية المنتشرة من حضرموت حتى مكة المكرمة. إلاّ أننا نجد أن بناء الجامع الحالي يعود إلى الأمير أسد الدين "محمد بن الحسن ابن أخي نور الدين عمر بن علي بن رسول" في بداية عصر الدولة الرسولية كما جُدد – أيضاً – في عصر الدولة الطاهرية أيام السلطان "عامر بن عبد الوهاب" (894 – 923 هجرية)، إلى جانب ذلك فأنه قد حصل تجديد آخر أيام الحكم الأول للعثمانيين قام به الوزير "حسن باشا" عام (996 هجرية) وذلك حسبما وجد في النص المدون على جدار القبلة.

المدرسة الجلالية العليا : تقع المدرسة الجلالية العليا في منتصف المدينة القديمة، ويتم الوصول إليها عن طريق سلالم صاعدة. يعود تاريخ بناء المدرسة إلى بداية (القرن التاسع الهجري)، وقد بناها الشيخ جلال الدين "محمد بن أبي بكر السيري"، وذلك حسبما أثبت على نص الشريط الكتابي الذي يعلو مدخل بيت الصلاة، وممّا يقرأ فيه النص التالي: (أمر بعمارة هذه المدرسة الشيخ جلال الدين "محمد بن أبي بكر السيري" شيخ مخلاف بَعْدان، وذلك في شهر صفر من شهور سنة خمسة عشر وثمانمائة للهجرة). ومنها المئذنة: التي تقع في الناحية الشرقية للصحن، وتُعد من أجمل المآذن اليمنية، تتكون من قاعدة مربعة يعلوها بدن مضلع زين بزخارف هندسية عملت من الجص والآجر، وينتهي بدنها بشرفة يعلوها بدن مضلع صغير يفتح منه مدخل صغير، ويتوج المئذنة من الأعلى قبة مضلعة، مما جعلها شامخة البنيان وجميلة التصميم المعماري التقليدي فأصبحت معلماً معمارياً يستحق المشاهدة.

جبل ربي: موقع طبيعي ومنتجع سياحي جميل، وهو عبارة عن جبل مرتفع نسبياً يتوسط مدينة إبّ ويشرف عليها من كافة الجهات وله سطح مستوي يؤهله للاستغلال كمنتجع سياحي، وقد أقيم عليه متنزه يتبع المجلس المحلي لمدينة إبّ.

من أعيان مدينة إب المعاصرين

القاضي المرحوم عبد الرحمن بن محمد الحداد: (1330هـ - 17 شوال 1376هـ) ولد وتوفي في محافظة إب، كان كاتب لدى حاكم ذمار إسماعيل عبدالرحمن المنصور عام 1357هـ، عين في الديوان الملكي لدى ولي العهد سيف الإسلام أحمد يحيى حميد الدين في عام 1363هـ، سُجن في حجه عام 1363هـ مع الأحرار وأُطلق من السجن عام 1366هـ، سافر إلى عدن بعد فشل ثورة 1948م وعُين قاضياً في أبين، عاد من عدن بعد أن أمنه الإمام أحمد وأعاد تعيينه في الديوان الملكي، عُين كاتب حاكم في مذيخرة، ثم عين حاكماً في السبرة، أُعتقل وسُجن في سجن الزاجر بمدينة إب عام 1373هـ وأطلق من السجن عام 1375هـ.

القاضي المرحوم عبدالحفيظ بهران: (1349هـ1930م- 1424/12/2هـ 24/1/2004م) من مواليد قرية منزل سبأ في عزلة الدعيس مديرية بعدان محافظة إب، نشأ في قريته المذكورة، وتلقى مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يد والدته، ثم ألتحق بالكُتاب الحكومي الذي أُنشئ في القرية، وزامل أخاه يحيى بهران في الدراسة في مدينة إب على يد العلامة محمد بن علي الأكوع، والعلامة/قاسم شجاع الدين، والعلامة/محمد بن ناجي الوهابي، والعلامة إسماعيل باسلامة، واصل التثقيف الذاتي، فأجاد اللغة الإنجليزية، وألم ببعض مبادئ اللغة الفرنسية، عارض النظام الإمامي منذ فترة مبكرة من عمره. شغل العديد من الوظائف الحكومية في محافظة إب، وتعين وكيلاً للجهاز المركزي للرقابة والمحاسبة في عام 1394هـ1974م والذي شارك في تأسيسه، ثم أميناً عاماً للاتحاد العام لهيئات التعاون الأهلي للتطوير، كما عمل في السلك الدبلوماسي وتقلد العديد من المناصب، ومثل اليمن كدبلوماسي في أكثر من دولة عربية وإسلامية وأجنبية منها سفيراً مقيماً فوق العادة لدى جمهورية موريتانيا، وله شعر جيد...

المرحوم منصور بن محمد الصباحي: (1915م – فبراير 1995م) ولد بمدينة إب عمل أمين صندوق محافظة إب أثناء حكم الإمام/ أحمد يحيى حميد الدين وحتى بعد ثورة سبتمبر 1962م بعامين تقريباً، عمل عامل أوقاف المخادر لفترة تزيد عن خمس سنوات حتى نهاية عام 1969م تقريباً، عمل أمين صندوق في مكتب التعاون الأهلي للتطوير حتى بداية التسعينات، وهو والد الأستاذ علي منصور الصباحي ابن خالتي المرحومة مسك بنت القاضي العلامة المرحوم محمد بن يحيى مداعس، وشقيقة خالي المرحوم القاضي أحمد محمد مداعس المتوفي 8ذو القعدة 1434هـ.

ومن المراجع التي رجعنا إليها عند إعداد هذا المقال: (نتائج المسح السياحي في الفترة 1999-1996م)، (ملوك العرب رحلة في البلاد العربية مزينة برسوم وخرائط وفهرست أعلام/ تأليف أمين الريحاني/ الطبعة الثامنة/ دار الجيل بيروت)، (موسوعة اليمن السكانية/ تأليف الدكتور محمد علي عثمان المخلافي/ الطبعة الأولى2006م)، (صفة جزيرة العرب/ للهمداني)، (الموسوعة اليمنية/الطبعة الثانية)، (اليمن الكبرى/ للأستاذ حسين بن علي الويسي)، (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي/ تحقيق القاضي المرحوم إسماعيل بن علي الأكوع)، (معالم الآثار اليمنية/ إعداد المرحوم القاضي حسين أحمد السياغي/ من إصدارات مركز الدراسات والبحوث اليمنية – صنعاء)، (السلوك في طبقات العلماء والملوك/لأبي عبدالله بهاء الدين محمد الجندي/ تحقيق القاضي المرحوم محمد علي الأكوع)، (معجم البلدان والقبائل اليمنية/للباحث الكبير الأستاذ/إبراهيم بن أحمد المقحفي/ طبعة2011م)، (مجموع بلدان اليمن وقبائلها/ للعلامة المرحوم محمد الحجري)، (المدارس الإسلامية في اليمن/للمرحوم القاضي إسماعيل بن علي الأكوع)، (من بواكير حركة التنوير في اليمن، المجموعة الأدبية والصحفية للقاضي أحمد محمد مُداعس/ جمع وتحقيق وتقديم الأستاذ محمد محمد عبدالله العرشي/ شارك في الإعداد القاضي العلامة محمد إسماعيل العمراني)، (ومن المراجع الالكترونية موقع المركز الوطني للمعلومات (www.yemen-nic.info).

alarachi2012@yahoo.com